العالمين وقيل لأن الخطاب أولا كان مع الناس مؤمنهم وكافرهم بدليل هو الذي يسيركم في البر
والبحر فلو كان وجرين بكم للزم الذم للجميع فالتفت عن الأول للإشارة إلى اختصاصه بهؤلاء الذين
شأنهم ما ذكره عنهم في آخر الآية عدولا من الخطاب العام إلى الخاص قلت ورأيت عن بعض السلف
في توجيهه عكس هذا وهو أن الخطاب أوله خاص وآخره عام فأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن
زيد بن أسلم أنه قال في قوله حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم قال ذكر الحديث عنهم ثم حدث عن غيرهم
ولم يقل وجرين بكم لأنه قصد أن يجمعهم وغيرهم وجرين بهؤلاء وغيرهم من الخلق هذه عبارته ولله در السلف
ما كان أوقفهم على المعاني اللطيفة التي يدأب المتأخرون فيها زمانا طويلا ويفنون فيها أعمارهم ثم
غايتهم أن يحوموا حول الحمى ومما ذكر في توجيهه أيضا أنهم وقت الركوب حضروا لأنهم خافوا الهلاك
وغلبة الرياح فخاطبهم خطاب الحاضرين ثم لما جرت الرياح بما تشتهي السفن وأمنوا الهلاك لم يبق
حضورهم كما كان على عادة الإنسان أنه إذا أمن غفل قلبه عن ربه فلما غابوا ذكرهم الله بصيغة
الغيبة وهذه إشارة توبيخية ومن أمثلته أيضا وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون
وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون يطاف
عليهم والأصل عليكم ثم قال وأنتم فيها خالدون ومن بديع الالتفات ومثاله من الغيبة إلى التكلم الله الذي
يرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه وأوحى في كل سماء أمرها وزينا سبحان الذي أسرى بعبده
إلى قوله باركنا حوله لنريه من آياتنا ثم التفت ثانيا إلى الغيبة فقال إنه هو السميع البصير وعلى
قراءة الحسن ليريه بالغيبة يكون التفاتا ثانيا في باركنا وفي آياتنا التفات ثالث وفي إنه التفات
رابع قال الزمخشري وفائدته في هذه وأمثالها التنبيه على التخصيص بالقدرة وأنه لا يدخل تحت
قدرة أحد ومثاله من الغيبة إلى الخطاب وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا ألم يروا كم أهلكنا
من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وسقاهم ربهم شرابا طهورا إن هذا كان لكم جزاء
إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك ومن محاسنه ما وقع في سورة الفاتحة فإن العبد إذا ذكر الله
تعالى وحده ثم ذكر صفاته التي كل صفة منها تبعث على شدة الإقبال وآخرها مالك يوم الدين المفيد
أنه مالك الأمر كله في يوم الجزاء يجد من نفسه حاملا لا يقدر على دفعه على خطاب من هذه صفاته
بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة في المهمات وقيل إنما اختير لفظ الغيبة للحمد وللعبادة الخطاب
للإشارة إلى أن الحمد دون العبادة في الرتبة لأنك تحمد نظيرك ولا تعبده فاستعمل لفظ الحمد مع الغيبة
ولفظ العبادة مع الخطاب لينسب إلى العظيم حال المخاطبة والمواجهة ما هو أعلى رتبة وذلك على طريقة
التأدب وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة فقال الذين أنعمت عليهم مصرحا بذكر المنعم وإسناد الإنعام إليه
لفظا ولم يقل صراط المنعم عليهم فلما صار إلى ذكر الغضب زوى عنه لفظه ولم ينسبه إليه لفظا وجاء باللفظ
منحرفا عن ذكر الغاضب فلم يقل غير الذين غضبت عليهم تفاديا عن نسبة الغضب إليه في اللفظ وقيل إنه لما ذكر
الحقيق بالحمد وأجرى عليه الصفات العظيمة من كونه رب العالمين ورحمانا ورحيما ومالكا ليوم الدين تعلق العلم
بمعلوم عظيم الشأن حقيق بأن يكون معبودا دون غيره مستعانا به فخوطب بذلك لتميزه بالصفات المذكورة
تعظيما لشأنه حتى كأنه قيل إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة لا غيرك وقيل ومن لطائفه

التنبيه

التنبيه على أن مبتدأ الخلق للغيبة منهم عنه سبحانه وقصورهم عن محاضرته ومخاطبته وقيام حجاب العظمة
عليهم فإذا عرفوه بما هو له وتوسلوا للقرب بالثناء عليه وأقروا بالمحامد له وتعبدوا له بما يليق بهم تأهلوا
لمخاطبته ومناجاته فقالوا إياك نعبد وإياك نستعين تنبيهات الأول شرط الالتفات أن يكون الضمير في المنتقل
إليه عائدا في نفس الأمر إلى المنتقل عنه وإلا يلزم عليه أن يكون في أنت صديقي التفات الثاني شرطه أيضا أن يكون
في جملتين صرح به صاحب الكشاف وغيره وإلا يلزم عليه أن يكون الثالث ذكر التنوخي في الأقصى القريب وابن الأثير
وغيرهما نوعا غريبا من الالتفات وهو بناء الفعل للمفعول بعد خطاب فاعله أو تكلمه كقوله غير المغضوب
عليهم بعد أنعمت فإن المعنى غير الذين غضبت عليهم وتوقف فيه صاحب عروس الأفراح الرابع قال ابن
الأصبع جاء في القرآن من الالتفات قسم غريب جدا لم أظفر في الشعر بمثله وهو أن يقدم المتكلم في كلامه
مذكورين مرتبين ثم يخبر عن الأول منهما وينصرف عن الإخبار عنه إلى الإخبار عن الثاني ثم يعود إلى الإخبار
عن الأول كقوله تعالى إن الإنسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد فانصرف عن الإخبار عن الإنسان
إلى الإخبار عن ربه تعالى ثم قال منصرفا عن الإخبار عن ربه إلى الإخبار عن الإنسان وإنه لحب الخير لشديد
قال وهذا يحسن أن يسمى التفات الضمائر الخامس يقرب من الالتفات نقل الكلام من خطاب الواحد أو الاثنين
أو الجمع لخطاب الآخر ذكره التنوخي وابن الأثير وهو ستة أقسام أيضا مثاله من الواحد إلى الاثنين قالوا
أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وإلى الجمع يا أيها النبي إذا طلقتم
النساء ومن الاثنين إلى الواحد فمن ربكما يا موسى فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى وإلى الجمع وأوحينا
إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة ومن الجمع إلى الواحد وأقيموا
الصلاة وبشر المؤمنين وإلى الاثنين يا معشر الجن والإنس إن استطعتم إلى قوله فبأي آلاء ربكما تكذبان
السادس يقرب منه أيضا الانتقال من الماضي أو المضارع أو الأمر إلى آخر مثاله من الماضي إلى المضارع
أرسل الرياح فتثير خر من السماء فتخطفه الطير إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله وإلى الأمر
أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا ومن المضارع إلى الماضي
ويوم ينفخ في الصور ففزع ويوم نسير الجبال إلى قوله وحشرناهم وإلى الأمر قال إني أشهد الله واشهدوا
ومن الأمر إلى الماضي واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا وإلى المضارع وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي
إليه تحشرون الاطراد هو أن يذكر المتكلم أسماء آباء الممدوح مرتبة على حكم ترتيبها في الولادة قال ابن أبي
الأصبع ومنه في القرآن قوله تعالى حكاية عن يوسف واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب قال وإنما لم يأت
به على الترتيب المألوف فإن العادة الابتداء بالأب ثم بالجد ثم الجد الأعلى لأنه لم يرد هنا مجرد ذكر الآباء وإنما ذكرهم
ليذكر ملتهم التي اتبعها فبدأ بصاحب الملة ثم بمن أخذها عنه أولا فأولا على الترتيب ومثله قول أولاد يعقوب
نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق الانسجام هو أن يكون الكلام لخلوه من العقادة منحدرا
كتحدر الماء المنسجم ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقة والقرآن كله كذلك قال أهل البديع
وإذا قوي الانسجام في النثر جاءت قراءته موزونة بلا قصد لقوة انسجامه ومن ذلك ما وقع في القرآن موزونا
فمنه من بحر الطويل فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ومن المديد واصنع الفلك بأعيننا ومن البسيط فأصبحوا
لا ترى إلا مساكنهم ومن الوافر ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ومن الكامل والله يهدي من يشاء

Copyright © King Saud University